مفهوم الحب وفلسفته عند ابن حزم الأندلسي

إعداد

أ/ خالد بن سعود الحربي

محاضر، قسم الأدب والبلاغة والنقد،

كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

مفهوم الحب وفلسفته عند ابن حزم الأندلسي

خالد بن سعود الحربي
قسم الأدب والبلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
البريد الالكتروني: Kshharbi@uqu.edu.sa

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم الحب وفلسفته عند ابن حزم الأندلسي، ويعدّ ابن حزم صاحب تجربة في الحبّ حيث إنه عاش في صباه في مجتمع النساء، ومكنه ذلك من أن يعرف من أحوالهن ويخبر من شؤونهن ما عمق تجربته وإحساسه بمجتمع النساء، وما أتاح له بعد ذلك أن يسطره في كتاب يشرح فيه فلسفة الحب وهو كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألاف"، وفي كتابه لا ينظر ابن حزم للحب من زاوية إيجابية مثالية، بل إنه ينظر من زاوية واقعية تعبر عن تجربته في الحبّ، وبالتالي يعبر ابن حزم في فلسفته للحب عن مزايا الحبّ كما أنه يُبين عن آفات الحبّ وعيوبه، فضلاً عن أنه من خلال تجربة ذاتية يبين عن علامات الحبّ وبعضاً من أحواله وأعراضه.

ومن النتائج التي توصلت إليها: ١ ـ يُعدّ الحب رابطا مهما بين البشر، يؤلف بين عناصر المجتمع المختلفة ويوحد بينها في ظل إحساس جديد وشعور مختلف. ٢ ـ ساعد الاستقرار الفكري في الأندلس بعيدا عن الفرق والصراعات على بلورة عاطفة الحب داخل المجتمع الأندلسي وتشكلها وتوهجها بعد ذلك. ٣ ــ ربي ابن حزم الأندلسي في حجور النساء ومكنه ذلك من الاقتراب منهن ومعرفة أحوالهن والبصر بها والكتابة عنها بعد ذلك. ٤ ـ أحب ابن حزم الأندلسي جارية في صباه تدعى نعم، ومكنه هذا الحب من أن يصدر في كتابه في فلسفة الحب عن تجربة ذاتية ومعاناة حقيقية في فهم أبعاد الحبّ وأحواله.

الكلمات المفتاحية: فلسفة الحب، الشعور بالاغتراب، العاطفة، ابن حزم الأندلسي، إدمان النظر، المراسلة، السفير، الوصل، الواشي.

The concept of love and its philosophy according to Ibn Hazm Al Andalusi

Khaled bin Saud Al-Harbi
Department of Literature, Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia
E-mail: Kshharbi@uqu.edu.sa

Abstract:
This research aims to study the concept of love and its philosophy according to Ibn Hazm Al Andalusi, and he is considered love a moment of beginning and hugging things in their innocent beginnings before being blocked ", an energetic energy in man that shatters the walls separating him from his fellow human beings, Plus, love emotion glows when difference emerges and yearns to identify with the different as well as the fact that the emotion of love adorns the feeling of alienation and proximity between souls, according to Ibn Hazm in the Andalusian experience, these concepts in the land of the virgin and innocent nature with different races and the emotion of love has had the effect of bringing such different races closer together and merging them into a new point.
One of the most notable findings of the study was: 1. Love is a first original moment and surprise in an association that is unique.2 - Arab life was rich in emotion and full of life. 3 - Love may make the souls get closer and remove the feeling of alienation. 4 The narrated text " Tauk Al Hamama fi Al Olfa wa Al Aalaf" for Ibn Hazm is considered one of the most important productions in the context of love.5. Ibn Hazm depends in his understanding and philosophy of love through his own experience and the Andalusian environment in which he lived.

Keywords: The philosophy of love, the feeling of alienation, passion, Ibn Hazm al-Andalusi, addiction to looking, correspondence, ambassador, connection, washi.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحب من العواطف البشريّة الهامة التي تصل بين البشر وتوّحد بينهم وتربطهم في علاقات جديدة مبتكرة، ولأنه كذلك فهو يستدعي الكشف عنه ومحاولة فهمه والتوصّل إلى أبعاده المختلفة، ولاسيما عند ابن حزم الأندلسي الذي أفرد كتاباً من كتبه للحب وكان هذا الكتاب يصدر عن تجربةٍ ذاتية عاشها ابن حزم مع الحب اكتوى فيها بلهيبه واصطلى بناره، وفضلاً عن هذه التجربة الذاتية لابن حزم فهو في نظرته للحب يصدر عن البيئة الأندلسية التي منحت ساكنها أسباباً مختلفة لتوهج عاطفة الحب من بينها جمال المكان وتنوع العناصر التي شكلت المجتمع الأندلسي ، ومن هنا تبرز الأسئلة التالية في هذا البحث:

س ١ : ما الحب ؟ وكيف تتشكل عاطفته؟

س ٢ : ما أسباب توهج عاطفة الحب؟

س ٣ : ما أثر البيئة الأندلسية على ابن حزم الأندلسي في تجربته مع الحب؟

س ٤ : بم عرف ابن حزم الحب؟

س ٥ : ما أبعاد تجربته الذاتية مع الحب؟

س ٦ : ما علامات الحبّ؟ وما أحواله؟ وما آفاته ؟

خطة البحث:

وقد جاء البحث في مقدمة وستة مباحث، وخاتمة وبها أهم النتائج التي توصل إليها البحث ،وقائمة للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: مفهوم الحب وفلسفته.

المبحث الثاني: رؤية ابن حزم الأندلسي للحب.

المبحث الثالث: علامات الحب.

المبحث الرابع: أفعال الحب.

المبحث الخامس: أعراض الحب.

المبحث السادس: آفات الحب.

ثم الخاتمة بأهم النتائج

وزيلت البحث بقائمة أهم المراجع والمصادر التي توصلت إليها

المبحث الأول

مفهوم الحب وفلسفته عند ابن حزم الأندلسي

اوّلاً: مفهوم الحب وفلسفته:

موضوع الحب من الموضوعات المهمة، والقريبة من النفس، فالحبّ يكاد يلامس كل ذات ويقترب من كل روح، وهو حافز مهم من أجل استمرار النشاط الإنسانيّ.

يرتبط الحبّ في أصل تشكله بلحظة من لحظات البداية ومعانقة الأشياء في بكارتها قبل أن يعتريها ما يعتريها من حجب وموانع بفعل العادة والتّكرار، فالحبّ لحظة أصليّة أولى ودهشة في ارتباط يُعدٌّ فريدًا من نوعه، ولأنه كذلك يجيء التعريف به بألفاظ ومعاني تقارب الإنسان في كونه روحًا سماويّة يغترف من العالم العلويّ ما يغترف من أنوار.

وهو"نفحة سماوية عطرة تفعم أجواء النفوس بكل ما رقّ ولذّ وطاب"(١)، و"لحظة حب واحدة هي اختلاسة فردوسيّة عجيبة تختزل كيان العاشق بكليّته، لأن من يهوى ويعشق يحيا حياته"(٢)، وبالحبّ "يعود الإنسان إلى أوّله، فتدب فيه رعشة الحياة الأولى، وتعتريه دهشة الخلق، ويستولي عليه ذلك الانجذاب الأصليّ الذي به تأتلف الأشياء، وتتوحّد الكائنات، وتتمرأى الذوات"(٣).

ومن خلال لحظة حبّ واحدة تمتدّ التجربة وتتّسع، وتكتسب ثراءها

---

(١) الحبّ عند العرب: دراسة أدبيّة تاريخيّة، إعداد: المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٥.

(٢) الحب والفناء، علي حرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط ٢ ، ٢٠٠٩م، ص٩.

(٣) المرجع السابق، ص٩٠.

وغناها، ذلك أنّ الحبّ في جوهره تجربة بين اثنين، ما إن تنقدح بينهما شرارة المناسبة، حتى يزدهر الوجود من حولهما وتعمّ الأضواء وتتغيّر الأشياء، و"للحبّ أثره العظيم، والخلاق في حياة الإنسان ووجوده، إذ به يلطف الطبع ويرقّ الإحساس وتصفو النفس. هو امتلاء الوجود وألقه، إنه وجد موجد وحضور ملهم ونور مشرق"(١).

وحين العودة إلى الحياة العربيّة قديمًا باعتبارها لحظة من لحظات البدء والتأسيس الأولى لا تتغيّر الأشياء كبيّر تغيّر بينها وبين ما طرأ عليها في لحظات الانتقال والهجرة في العصور اللاحقة، ذلك أن العربيّ ولد عاشقًا، وكان يفتتح قصيدته وهي أثيرة لديه بموضوع غزليّ يُقارب فيه المرأة معشوقته الأولى، وكان لا يكفّ من الحديث عنها باعتبارها سببًا من أسباب الخصب يقاوم به جدب المكان الذي كان يفرض عليه ما يفرض من هجرة ورحيل.

يكشف عن سبب الحب ما يضيئه المعجم في شرح ما يداخل كل منهما من حال حيث كان يُقارب الرجل بألفاظ من صميم البيئة الصحراوية وكانت تقارب المرأة هي الأخرى بألفاظ تكشف عنها في هذا السياق، إذ يُقال "الهيام: الشرود في البراري والقفار بتأثير الحبّ، ومنه قولهم: هام على وجهه"(٢)، وكان يُقال "العاشقة اللبلابة تخضرّ، وتصفرّ وتعلق بالذي يليها من الأشجار، فاشتق من ذلك العاشق"(٣).

ولذلك ما يبرره حيث كانت الجاهليّة "غنيّة بالعواطف، زاخرة

---

(١) الحب والفناء، ص٩٠.

(٢) الحبّ عند العرب، ص١٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٨.

بالحياة"(١)، ولم يكن غريبًا في ظلّ ذلك أن تكون القصيدة، مستودع العواطف، بالنسبة للعربيّ الدُرّة يبحث عنها ليضيء بها عتمة وجوده، وكانت القصيدة فرصة لاستعادة شريط ذكرياته مع المرأة، وبدت نزعة "الحبّ البارزة في بكاء الأطلال عند الجاهليين، والاستمتاع الرائع بالتحدث عن المرأة، والتشبيب والغزل والنسيب"(٢)، و"المرأة كانت وراء نشوء الفروسيّة في إطار الجاهليّة"(٣).

ومن هنا كان التماهي لدى الشعراء مع محبوباتهنّ، وتجلى ذلك بنوع خاص لدى الشعراء الذين تسموا بأسماء من أحبوهن من النساء في العصر الأموي(٤).

ولم تكن هذه الظاهرة استثناء في سياقٍ شعريّ، وإنما كانت في صميم الحياة وجوهرها و"كانت الحياة الغراميّة الخصبة التي عمّت جزيرة العرب تمثّل تيارًا آخر من معاناة الحبّ، وتضعنا إزاء رومانسيّة قديمة، قويّة"(٥).

في ظلِّ ما ورد يمكن أن يلحظ الحبّ وهو يتيح للإنسان تحقيق التواصل مع كل ما هو حوله في بيئة مجدبة لا بُد من الانصياع لشروطها وبسط النفوذ عليها لئلا تكون سببًا معيقًا دون تحقيق حياة الرضا، فكان الحب، و"الحبّ هو طاقة نشيطة في الإنسان؛ طاقة تحطم الجدران التي تفصله عن رفاقه البشر، وتوحده مع الآخرين؛ يجعله الحب يتغلّب على

(١) الحبّ عند العرب ، ص١٣.
(٢) المرجع السابق، ص٧٤.
(٣) المرجع السابق، ص٨٧.
(٤) الحب والفناء، ص١٧٥.
(٥) الحب عند العرب، ص١١.

الشعور بالعزلة والانفصال، ويسمح له بأن يكون ذاته"[١].

ولا تتعلّق هذه العاطفة بحال أحادية من طرفٍ واحد، ولكنها تقوم على المشاركة، ومن هنا يبرز شكل من أشكالها وهو المعرفة، وهي تعني تفهّم الطرف الآخر وإدراك ما ينطوي عليه قبل الدخول في علاقة معه، و"المعرفة كجانب من الحبّ هي التي لا تقف على المحيط الخارجيّ، بل تنفذ إلى العمق، ولا تكون ممكنة إلا حين أتجاوز الاهتمام بنفسي وأرى الشخص الآخر بصفاته الخاصة"[٢]، ومعها تكون هذه العاطفة سبباً لكشف الحجب وإزالة ما يقوم بين الطرفين من حاجز كثيف يحول دون بلوغهما درجة الانصهار في هذه التجربة الفريدة "الطريق الآخر لمعرفة السرّ هو الحبّ. الحبّ هو نفاذ فعّال إلى الشخص الآخر الذي تستكين رغبتي في معرفته من خلال الاتحاد معه"[٣]، وفي أحد تعريفات الحبّ "هو كشف الحجب"[٤].

وتصبح درجة المعرفة أكثر جاذبيّة وقبولًا حينما تكون مع المختلف، وهو الذي يحول دونه كثير من الحجب ويكون الاقتراب منه ريًّا بعد ظمأ منهك، و"الاختلاف هو آية الخلق، وعلامة الإبداع، ودليل الإيجاد. إنه بُعد يتيح لكل من الجنسين المختلفين الانجذاب إلى الآخر، واستدعاءه، والتعرّف إليه"[٥].

---

(١) فن الحب: بحث في طبيعة الحب وأشكاله، إريك فروم، ترجمة: متيم الضايع، صفحة سبعة، الجبيل، ٢٠٢٣م، ص٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

(٣) المرجع السابق، ص٤٣.

(٤) الحبّ والفناء، ص٧٨.

(٥) المرجع السابق، ص٤١.

ومع الاختلاف يبدو النقيض الآخر وهو التشابه، و"إذا كان التشابه يولد الألفة والسَّكينة، فإن الاختلاف يولد الغرابة والدهشة، ويبعث على العجب والافتتان"(١).

يبعث الاختلاف على التجدد و معانقة اللحظة البكر والاقتراب من الاكتشاف الجديد، وهو فرصة للإثمار والسُّقيا في أرضٍ غير مألوفة، وحين الحديث عن الاختلاف ينبغي استحضار المرأة بوصفها المظهر الأجلى للاختلاف، حيث تتشكّل في كل تجربة بشكل جديد وملمح مختلف.

والمرأة "لولاها لعمّت الرتابة والبلادة، وأمست الحياة جدباء موحشة. هي مبتدى الخلق ورحمه، إذ الخلق هو انفراج المادة، ونكاح الطَّبيعة، وامتزاج العناصر، وافتضاض الأسرار، وافتراع الأبكار"(٢)، و"إذا ما أفرط في حبّها، وعشقها، جن بها وذهل عن كل ما سواها"(٣).

وجمالها "هو المعشوق الأوّل عند الرجل. هو الأبهى والأكمل والألطف، فيما يلاحظ من صور الجمال، وهو الأبهج والألذ فيما يُدرك ويُحبّ"(٤)، غير أنّ الجمال وحده لا يغدو مفسِّرًا لعاطفة الحبّ، وهذا ما يكسب الحب جلالًا وغموضًا ويجعله لُغزًا عصيّا، يُقارب بالكشف حينًا وحينًا يتأبى فيستعصى فهمه، ومن هنا قد يُعشق الأقل من جهة الصُّورة "والخُلاصة هي أنَّ حُسن الشكل أعجز من أن يُفسّر الحالات الغراميّة جملة وتفصيلا، لأن في كثيرٍ من هذه الحالات ما يدحض نظريّة الحُسن، ويجعلنا

---

(١) الحب والفناء، ص٤١.

(٢) الحب والفناء، ص٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٨.

إزاء لُغز لا يُدرك كنهه، ولا يُسبر غوره"[1].

وبدافع من ذلك كانت التلقائيّة في الحُبّ، والتلقائية تشير إلى موجات الحُبّ التي تتقلّب بالعاشق والمعشوق دون أن تكون في زمام السيطرة، وهو ما يمنحها ألقًا خاصًا وسحرًا قل نظيره "وبسبب تلقائيّة الحُبّ نجد أنّه لا يتناسب تناسبًا معقولًا أو موزونًا مع محاسن المحبوب وفضائله ومفاتنه، كما أنه من المعروف أن العاشق ينزع دومًا إلى سبغ المعشوق بخصال وخصائص لا يتّصف بها من وجهة نظر محايدة بعض الشيء"[2].

ومن هنا طرحت المناسبة تفسيرًا "إذا كان للمحبّة أسباب كثيرة فإنها تُدرك أول ما تدرك بوصفها تناسبًا بين المحبّ والمحبوب"[3] و"كلما قربت المناسبة قويت المحبّة، وعلى قدر التناسب يكون العشق"[4].

وربما تعود هذه التفسيرات والتردد بين محاولة التعريف وعدم الوصول إلى تعريف شارح إلى غموض عاطفة الحبّ، وغموضها هو ما دفع إلى كثرة التسميات التي تحاول مقاربة الحب وتحديده تحديدًا دقيقًا، وهناك "التمييز بين حالات معيّنة من الحبّ: تبدأ بأقلّها عنفًا مثل الود، وتنتهي بأشدها قوة مثل الهيام والشغف، مرورًا بحالات تتدرّج بين هذين الطّرفين، مثل: الهوى، والوجد، والكلف، والعشق، والتتيّم"[5]، ومن هنا عبّر اليوناني القديم سوفوكليس "عن حقيقة الحبّ المُركّبة، بقوله: الحبّ ليس وحده الحبّ،

(١) الحُبّ عند العرب: ص٢٦.

(٢) في الحب والحُبّ العذري، صادق جلال العظم، ترجمة سعدي يوسف، دار المدى، ١٩٩٩م، ص١٣.

(٣) في الحب والفناء، ص١٠١.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٤.

(٥) في الحبّ والحب العذري، ص٢٥.

ولكن اسمه يخفي في ثناياه أسماء أخرى متعددة"[١].

ومن ذلك يمكن الانتهاء إلى أنَّ عاطفة الحبّ هي الحافز الملهم للكثير من الآداب والروائع "وما قصص الحبّ التي عبقت في أرجاء المعمورة عامة إلا صدى للنفوس التي تيّمها الحبّ فلذّها أو أذلّها. وما القصائد والملاحم إلا انعكاس لأنواره المشعّة أناشيد قيّمة في تمجيد الحبّ وتقديس أجوائه العابقة بشذا الطّهر والجمال المختمرة بأنفاس الروعة والكمال"[٢]، كما يبرز في الأدب العربيّ على نحو خاص و"ما كتب عن العشق وأحوال العاشقين، في الأدب العربيّ، قل أن نجد له مثيلًا في سائر الآداب، تشهد على ذلك لغة مدهشة في غناها وشفافيّتها"[٣].

وتمتدّ الروائع التي سُطّرت في الحبّ على نطاق واسع في الأدب العربيّ ببعده المشرقيّ أو الأندلسي، وذلك بكثرة ملحوظة وعدد لافت، إن كانت تلك التي اصطلت بنار الحبّ على صعيد التجربة واكتوت بلهيبه وكتبت ما كتبت، أو تلك التي حاولت أن تدرس ظاهرة الحب دراسة نظريّة وتعالجها محاولة فهم أبعادها وأسبابها.

وإذا كان الحبّ في أحد معانيه "يُقرّب بين النفوس ويزيل الشّعور بالاغتراب"[٤]، فإنه في الأرض الأندلسيّة يكتسب في درجة من درجاته هذا التعريف، وذلك مع الحضور العناصري الذي لم يألفه العرب من قبل مثل البربر وغيرهم والاختلاط بهم ومشاركتهم الحياة، أو في هذه الأرض مع ما

(١) المرجع السابق، ص١٢.

(٢) الحبّ عند العرب، ص٥.

(٣) في الحب والفناء، ص١٥٩.

(٤) دراسة في الحبّ عند ابن حزم، إحسان عباس، جامعة الدول العربيّة، ع ٣ ، ١٩٨١م، ص١٣٦.

تمثّله من صقع نائي عن الجذور الأولى، وهو ما أحسّ به عبد الرحمن الداخل في قصّته مع نخلته[1].

غير أن هذه الأرض لما شهدته من موجات هجرة مختلفة تبدو فرصة مناسبة لإقامة العرب فيها، وذلك لكونها مكانا ملائما يمنح من أسباب الحياة الكثير، فالطبيعة الجغرافية تبدو جاذبة و"قد كثرت مظاهر التَّرف، وتعددت مشاهد الجمال، وشاعت في الحياة الأندلسيّة ألوان ماديّة استرعت انتباه الشُّعراء، وأوحت إليهم بنقلها في لوحات من القريض. وقد كانت الطَّبيعة من أهم ما جذب أنظار الشُّعراء"[2]، والمرأة تتمتّع بمكانة كبيرة في المجتمع الأندلسي "وكانت أكثر تحررا عما كانت عليه المرأة في مختلف أصقاع الإمبراطوريّة الأندلسيّة"[3].

وفي ظل ذلك يمكن رؤية تجربة من أهم التجارب في سياق الحب وهي تجربة ابن حزم الأندلسي الذي ألف كتاباً في ذلك وهو كتاب"طوق الحمامة في الألفة والألاف"، أخلصه لذكر فلسفته في الحب.



---

(١) دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٧م، ص٢١٢.

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ٢٠١٩م، ص٢٧٨.

(٣) الشِّعر النسوي الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري، سعد بوفلاقة، جامعة عنابة، ١٩٨٦ م، ص١٤.

المبحث الثاني

رؤية ابن حزم الأندلسي للحب

يُعتبر تعريف الحبّ أمرًا إشكاليًا للغاية، وذلك لغموض هذه العاطفة وتذبذبها بين الوضوح وعدم الوضوح، وهو ما تنبّه إليه في المدوّنة الأندلسيّة ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألاف" حينما جاء إلى التعريف بالحبّ فقال:

"الحبّ أعزّك الله أوله هزل وآخر جد، دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشَّريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجلّ"(١).

وحينما يُعبّر ابن حزم بـ "دقّت" معانيه و"جلالتها" و"لا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة" يشير إلى هذا الغموض في عاطفة الحبّ، ولا يختلف ذلك عما ورد حينما سئلت "أعرابيّة عن العشق. فقالت: جل والله عن أن يُرى، وخفي عن أبصار الورى، فهو في الصدور كامن ككمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، وهذه العبارة على إيجازها وبساطتها يمكن أن تعطي بالتأمل دلالات عميقة، لعل هذه الأعرابية المجهولة لم تقصد إليها قصدا، ولكن إدراكها الباطن قد انطوى عليها بوعي أو بغير وعي، فتأمل مثلًا وصف العشق بالجلالة التي يعطي إحساسًا بالضخامة، ثم الوصف بما يناقض ذلك، فهو لا يرى، لكنه لا يرى لجلاله، لا لهوانه، ومن هنا كان تقديم القسم بالله أمام موضوع يسبق إلى الخاطر أنه على تنافر معه، ووصفه بالخفاء مع قيامه في الصدور، وتقريب هذا الوصف

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: د. صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال إبراهيم، إشراف: د. عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٢٢م، ص٢١.

المتناقض ظاهريًا بالنّار الكامنة في الحجر، وهو تشبيه فلسفي في صميمه"(١).

وربما تعود تعبيرات ابن حزم في رسالته إلى خصوصية التجربة؛إذ ترتهن هذه العاطفة بسياقات وظروف ترسم لها مسارها، ومن هنا قصر ابن حزم رسالته على التجربة الأندلسيّة، وأوردَ كثيرًا من نماذجها وأسمائها، وهو ما تجلى حينما جاء إلى تعداد أسماء من أحبّوا فقال "منهم بأندلسنا"(٢)، وأخذ يعدد أسماء الخلفاء والشُّعراء في البيئة الأندلسيّة.

ولا يأتي ذلك من فراغ، بل إنه حصيلة تجربة من كتب الرّسالة، ولأنه حصيلة تجربته فهو يضمن الرسالة كثيرًا من التجارب الأندلسيّة التي تتقاطع مع هذه التجربة " لا تكاد تمضي خطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته، عن نفسه وعن أصدقائه، وآخرين مجهولين، وكلهم من العشاق، زفراتهم حارة، وأحاسيسهم صادقة يخلطون المداد بالدمع أو الرّيق، ويستخدمون في التراسل الحمام والعيون والرّسل، ويُعانون من الوشاة، ويموتون من الحبّ"(٣).

ومن هنا تتّسع الرؤية في رسالته فلا تقتصر على مجتمع النِّساء ولكنها تمتد فتشمل المجتمع كلّه، وليس كما "يتصوّر الكثيرون أن طوق الحمامة في الألفة والألفة مجرّد كتاب يتحدث عن النّساء، يتعرّض لشأنهن، في حين أنه يتعرّض للمجتمع كاملا فيعرض على مرآته المتّسعة الكثير من

---

(١) الحب في التراث العربيّ، د. محمد حسن عبد الله، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص٩.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٢١.

(٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطّاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة، مصر، ط ٢، ١٩٧٧م، ص٢٢٥.

أحوال الحبّ، وأول ما يبدأ به حديثه عن الود القائم بينه وبين من طلب إليه إنشاء رسالة يحدثه فيها عن الحب وأغراضه"(١).

وبدا في ضوء ذلك لابن حزم أن الحبّ لا يُدرك إلا بالمعاناة، فهو تجربة يمكن إدراكها من داخلها وليس من خارجها، ووحده من قاسى هذه العاطفة بإمكانه إدراك أسرارها وخفاياها وما تنطوي عليه من أبعاد.

ويُعرّج ابن حزم بعد ذلك على أسماء الخلفاء والذين قاسوا من هذه العاطفة ما قاسوا مع ذكرمن أحبّوا من الجواري أو النّساء ربما ليُبرهن على خصوصية تجربة الحبّ، أو على أنه عاطفة حينما تجتاح فهي لا تفرق بين كبير أو صغير، ولها سُلطة على من يكتوي بلهيبها، فيذكر حُبّ "عبد الرحمن ابن معاوية لدعجاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه: عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح"(٢).

وتعداد ابن حزم لهذه الأسماء هو شعور بنزعة العربيّ الأصيلة المتمثّلة في الحب، وهو وإن كان في بيئة أندلسيّة فيها اختلاط الأجناس، إلا أن جميع الأسماء التي ذكرها أمويّة، و"يكاد الأدب العربيّ يكون أسبق آداب العالم إلى تصوير الحُبّ والتعبير عن عاطفته، ويقر النقاد الأوروبيون بأن عاطفة الحُبّ لا وجود لها في الشِّعر اليونانيّ القديم، بل لم تتفتّح أزاهيرها إلا في مفتتح عصر النهضة، ولم تنضج بواكيرها إلا بعد أن

---

(١) المرأة والحب في الأندلس على مرآة طوق الحمامة، إبراهيم خليل محمد، مجلة المورد، ع ١ ، ٢٠١٦ م، ص ١٠٣.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٢١.

اتصلت أوربا بالشَّرق اتصالًا أدبيًا واجتماعيًا"[١] .

وسبق الأدب العربي ليس معناه القطع بأن هذه العاطفة لم توجد في الشعر اليوناني أو غيره من الآداب، فالعاطفة قد وجدت، غير أنها تشكلت في الأدب العربي بصورةٍ أعمق، وأخلص لها الشعراء في قصائدهم كما لم يخلص لها غيرهم من الشعراء في الآداب الأخرى.

وحينما يأتي إلى ذكر أسماء من أحبوا مع معشوقاتهن في صدر رسالته تستبين نزعة الحب لديه، لا سيما وأنه كتب رسالته في عنفوان شبابه حيث توقد العاطفة وتأججها، والشعور بإقبال الحياة وأنها تسقي من كأس النّعيم دائما، وطوق الحمامة خطّه "وهو في ريعان الشَّباب، يفيض تحديًا ويلتهب حماسة"[٢].

وهذا الإحساس تجلى في التعبير بالثنائية الضديّة، وهي ما صُدّرت به الرسالة حينما قال "أوله هزل وآخر جد"، وهو ينطوي على إحساس ابن حزم الجوهري بالحبّ وأنه في حقيقته اتّصال بين طرفين، وبالتالي تبدأ الماهية بذلك ويستمر سرد الأمثلة في ذكر أسماء العشاق على هذا النحو، ويتضح ذلك أيضًا في قوله "ومنهم بأندلسنا"، حيث تتضمّن ثنائية المشرق والأندلس والسباق الحضاري بينهما، وهي ثنائية ظلّت توجه الإنتاج الأدبي في كلّ من القطرين وتدفع به في طور المنافسة، وربما كان هو السبب الذي دفع ابن حزم لكتابة رسالته مستحضرًا فيها هوية أندلسيّة خالصة تضاد هوية المشرق في رسائل مثل رسالة "الزهرة" لابن داود الأصبهاني

---

(١) الحُبّ العذري: نشأته وتطوّره، أحمد عبد الستار الجواري، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٧م، ص١.

(٢) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص٢٢٤.

وغيرها[١].

ولعل ذلك من وجه آخر يعود إلى تفكير تقابلي عند ابن حزم يصاحب بوجه من الوجوه ما تقلّب فيه في حياته من أطوار حين نشأ في حجور النساء[٢]، قبل أن يدخل في غمار الحياة الأندلسيّة، أو ما كان عليه أهله من عز في قرطبة قبل أن يجتاحها البربر ويطمسوا كثيرا من معالمها وآثارها[٣].

ومن هنا يذهب بعضهم إلى أن ذلك يُمثّل الحنين عنده، باعتبار الحنين عاطفة تحاول أن تمسك بزمن ماضٍ قشيب في مقابل مستقبل لا يدري إلى أين يمضي به، "ويقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف، ويمد لأصحابه حبل الود وإن أساءوا إليه، أو قلبوا له ظهر المجنّ، ويحن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطَّعام، ويشرقه بالماء، ولا يملّ شيئًا إذا عرفه، ولا يسرع في أنسه مع أول لقاء، ولا يميل إلى استبدال ما يألف من الإخوان"[٤].

أو أن حنينه ليس بمعنى جزئي ولكن بمعنى كُلّي يتصل بزمن الأمويين الزاهر في الأندلس باعتبار ولائه لبني أمية قبل أن يحلّ عهد ملوك الطوائف، ومن بعده يأتي الانحدار " ففي هذا الجو من الحضارة المصقولة، والثقافة المزدهرة، ولد ابن حزم ونشأ، وتفاعل معها، غلامًا يافعا، وصبيًا

(١) ينظر: كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم السَّامرائي، مكتبة المنار، الأردن.

(٢) ينظر: طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م، ص٦١ وما بعدها.

(٣) ينظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، دار الرشاد.

(٤) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص٢٣٥.

دارسًا، وشابًا قلقًا، ورجلًا يعمل بكل ما أتيح له لكي يوقف انحدار الخلافة وتلاشيها"[١].

ويذكر في الحبّ أنه "ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشَّريعة"[٢]، ويعود ذلك إلى الاستقرار الفكريّ في الأندلس بعيدًا عن الفرق والصراعات والنزاعات التي بدت في المشرق، ومن هنا جرى تحريم الفلسفة واعتبارها محظورًا لما تجرّ إليه من نزاعات " ولقد كان علم الفلسفة علما محظورا في بلاد الأندلس ممقوتا من العامة والخاصة"[٣]، ويعتبر هذا الاستقرار والانسجام من جهة أخرى عاملًا من العوامل المهيئة على تبلور عاطفة الحبّ في البيئة الأندلسيّة.

ويُعرّج بعد ذلك على ما يراه مقاربة أصوب للحبّ فيقول: " وقد اختلف الناس في ماهيّته، وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه ابن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكر مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها"[٤].

ويقترب ذلك مما ورد عند أفلاطون في "نظريّته المعروفة في المثل وما كان يعتقده من أن أفراد كل نوع في الموجودات الحسّيّة والمدركات العقليّة قد فاض عن حقيقة مثاليّة كليّة مجردة، لها وجودها المطلق، وكل

---

(١) المرجع السابق، ص٧١.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٢١.

(٣) ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، قاسم الحسيني، مجلة آداب ذي قار، ع ٢٨ ، ٢٠١٨م، ص١١٩ .

(٤) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٢٣.

فرد من أفرادها يقترب منها ويبتعد بنسبة ما يستوفي من خصالها وكمالها. وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانيّة إلى نفس عليا واحدة، هي مثالها المطلق الذي انفصلت عنه، وهي لا تزال تحن إليه، فإذا رأت ظلاله في شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب"[(١)].

وفي ماهية الحُبّ يطرح الشُّعراء تفسيراتٍ جديدة يرون فيها ما يعرّف الحبّ، فهذا ابن زيدون ينظر للحب من جهة أنّه خرقٌ للمألوف وتجاوز للاعتيادي والطّبيعيّ، فالحبّ عنده يغيّر ويبدّل، ويتعلّق ذلك بظواهر طبيعيّة[(٢)]:

هل عَهِدْنَا الشمسَ تعتاد الكِللْ .:. أم شَهِدْنَا البدرَ يجْتاب الحُللْ

أم قَضِيْب البَان يَعْنِيْه الهَوى .:. أم غَزال القَفْر يُصْبيه الغَزَلْ

خَرَق العَاداتِ مُبْدي صُورةٍ .:. حَشَد الحُسنُ عليها فاحتفلْ

(بحر الرمل)

وفي موضع آخر يرى ابن زيدون أن معنى الحُبّ ضبابيٌّ وعصيٌّ على التعريف، ومن هنا لا يمكن أن يُقبض عليه، فهو معنى يرتبط بالوحي[(٣)]:

فَهِمْتُ مَعْنَى الهوى من وَحِي طَرْفِكَ لِي .:. إنَّ الحِوارَ لَمَفْهومٌ من الحَوَرِ

(بحر البسيط)

وهنا يكون للهوى معنى جديدا يفهمه الشَّاعر، غير أن هذا المعنى في

---

(١) الحب العُذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٩م، ص١١.

(٢) ديوان ابن زيدون، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٦.

لغة الأرواح لم تستطع لغة الكلام والمعجم أن تنزله إلى مدارها.

ومن وجهة نظر المعتمد بن عبّاد فإنَّ الحبّ يلعب بالهموم ويزيل ما تراكم منها بفعل سلطته وسطوته، وهكذا فإن من يحبه له هذه القدرة[(١)]:

وأغنَّ يَلْعَب بِالهُمُومِ كَمَا غَدَتْ .:. أرمَاحُ قَومِي بالعِداةِ لَواعِبا

(بحر الكامل)

ويشرح ذلك في موضع آخر طارحًا ثنائية القلب والعقل، والحبّ مرتبط بالقلب، فيما ترتبط الهموم بالعقل[(٢)]:

بَالعَقْلِ تَزْدَحِمُ الهُمُومُ عَلى الحَشَا .:. فالعَقْلُ عِنْدِي أن تزولَ عقولُ

(بحر الكامل)

والحبّ من وجهة نظر ابن حزم يعود إلى تناسب بدئي في أصل عنصر النفوس الرّفيع، وهو قائم على التشاكل والمناسبة، وفي هذا التّعبير يبين عما يشبه أن يكون تعبيرًا عن البيئة الأندلسيّة، فهو وإن كان يتحدث من سياق روحي علوي خالص إلا أنه بوجه من الوجوه ومعنى من المعاني يتكئ على شيء مشاهد ومحسوس وهو الشرائح المختلفة التي يقوم عليها أساس المجتمع الأندلسي، باعتبار أن الحب اتصال بين "أجزاء النفوس المقسومة" [٣] كما ورد في عبارته .

(١) ديوان المعتمد بن عباد، بدون، ص٣.

(٢) ديوان المعتمد بن عباد، ص٢٥.

(٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص ٢٣ .

المبحث الثالث

علامات الحب

تعتبر علامات الحبّ عنصرًا بارزًا من عناصر الحبّ، إذ هي حصيلة سياق طويل تعارف عليه العشاق وكوّنوه من خلال ما أبدوه من أفعال، ومن خلال ما ترسّب في أعماقهم من أحاسيس وخلجات كانت نتيجة لهذه العاطفة، ومن هذه العلامات:

١ – إدمان النّظر(١)، والعين ما بها يُدرك الحسن ويُميّز، ويرصد الجمالي ويوقف عليه، ويستلذ به، إن كان هذا الجمالي في الإنسان ومزاياه وما وهب، أو كان الجمالي في الطبيعة وفتنتها وسحرها.

وقد كانت عناصر المجتمع الأندلسي تتسم بالجدة فضلًا عما عرف به النساء الأندلسيات من نزوع إلى الشقرة مما سيكون له أثر في النسيج الاجتماعي، فضلا عن المكان الأندلسي الذي يتمتع بطبيعة ساحرة، والتفاعل مع كل هذه العناصر بصريًا لابد أن تكون له تجربته الخاصة وطابعه الجديد.

ويروى أن "المنصور ملولا محبًا للتغيير في كل شيء، ولا يأنس امرأة ولا صديقًا ولا حال إلا مله وانقلب حبه له كرهًا ونفورا، وقد كان يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه، حتى يملكها وإن غلا ثمنها وصعب منالها، فإذا صارت إليه زهد فيها ونفر منها حتى يبيعها بأوكس الأثمان، وقد أتلف في هذا الأمر مالا كثيرا، كما ابتلى بحبه جوارٍ كثيرًا لم يفِ لهن"(٢).

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣٠.

(٢) ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، ص٣٣ ، هو المنصور بن أبي عامر.

وقد افتتح ابن حزم رسالته بذكر النظر في علامات الحب، ولعله حينما افتتح بذكر إدمان النظر، والعين مفتاح لكل حسن، كان يدرك ما تنطوي عليه البيئة الأندلسيّة من خصوصية تتسم فيه بالجمال الطَّبيعيّ، ومن هنا يجتمع تحت إدمان النظر الإنسان والمكان فيشعلان حاسة الذوق الجماليّة ويروِيانها، و"لابن حزم قيم جمالية نراها متفرقة في الطوق؛ فهو حساس لجمال الطبيعة الخارجيّة، فيصف المتنزهات التي كانت تكثر في ضواحي قرطبة، وهو حساس أيضًا لجمال الصور البشريّة، ويرى أن النفس جميلة، وترنو إلى الصُّور الحسنة، ولكن الجمال لا يقتصر على الصور بل يتجاوزها إلى جمال الروح"(١).

وقد كان بنو عذرة الذين عرفوا بالحبّ العذريّ يعيشون في مكان ممرع مُخصب قريب من المكان الأندلسيّ الذي أوحى ما أوحى إلى شعرائه بما يمكن من القول إن المكان حافز من حوافز إثارة عاطفة الحب وإشعالها "وكانوا يسكنون وادي القرى، وهو وادٍ طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل:

ولقد أجرُّ الذيلَ في وادي القُرَى .:. نشوانَ بين مزارعٍ ونَخِيلِ

(بحر الكامل)

وفي هذا الوادي الممرع الخصب كان بنو عذرة يتنقلون بخيامهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هانئة بالقياس إلى قبائل الصَّحراء الذين كانوا يُقاسون غير قليل من الشّظف، حين تجدب مراعيهم، فتموت القطعان، ويهلك الناس"(٢).

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، ص١٩٠.

(٢) الحب العُذري عند العرب، ص١٩.

٢ – الإقبال بالحديث[١]، والحديث يغترف من الروح وما يملكه كل طرف في داخله للآخر وما بينهما من أسباب، ويرتبط الحديث بنشوة روحيّة يفضي كل منهما للآخر بما يمور في أعماقه من مشاعر وخلجات مما يوثق عرى المحبّة ويقويّها.

وقد كان الشاعر العربيّ يبتدئ بذكر الأطلال فيناجيها بحديث طويل لأنها مكان يكن له الكثير من الحب والحنين في أعماقه ثم يعقب بمحبوبته فيناجيها ويدخل في حوار معها[٢].

ويكون الحديث لأغراض كثيرة منها البوح أو التلذذ بتجاذب أطراف الحديث أو غير ذلك، وقد قال الشاعر قديمًا:

ولمّا قَضِيْنَا مِنْ مِنَى كلَّ حَاجَةٍ .:. ومسَّحَ بَالأركانِ منْ هُو مَاسحُ

أَخَذْنَا بِأطْرافِ الأحَاديثِ بَيْنَنا .:. وسَالتْ بأعناقِ المطيّ الأباطحُ

(بحر الطويل)

ويقرأ ابن جنّي هذه الأبيات في سياق الغزل "وذلك أن في قوله كل حاجة ما يُفيد منه أهل النّسيب والرّقة، وذوو الأهواء والمقة مالا يفيده غيرهم. وأما البيت الثاني فإن فيه:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وفي هذا ما أذكره، لتراه فتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أنه لو قال: أخذنا في أحاديثنا، ونحو ذلك لكان فيه معنى يُكبره أهل النّسيب، وتعنو له ميعة الماضي الصَّليب. وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علوّ قدر الحديث بين الأليفين، والفكاهة بجمع شمل المتواصلين؛ ألا ترى إلى قول الهذلي:

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣٠.

(٢) ينظر: الحوار في غزل عمر بن أبي ربيعة، عبد الفتاح نافع، الأردن.

وإنَّ حَــدِيْثَاً مِنــكِ لَــو تَعْلَمِينــهُ .:. جَنَى النَّحْلِ في ألبَانِ عوذٍ مَطَافلِ

(بحر الطويل)

وقال آخر:

وحَـــدِيثُهَا كَالغيـــثِ يَسْـــمَعُهُ .:. راعِـــي سِـــنِينَ تتَابعـــتْ جـــدْبَا

فأصَاخَ يَرْجُو أنْ يكونَ حَيا .:. ويَقولَ مِنْ فَرحٍ هَيا ربَّاِ"[1].

(بحر الكامل)

٣ – الإسراع بالسّير نحو المكان الذي يكون فيه[2]، وحينما يذكر ابن حزم الإسراع نحو المكان، فالإسراع يقتضي الرغبة العميقة، والمكان هو ما يوثّق اللحظات ويشدّ الزمن إليه برابط يربط العاشق والمعشوق به، ويمثّل المكان عنصرًا مهما، وقد كانت القصيدة العربيّة القديمة تبدأ بذكر الطلل وتستفتح الحديث به، والطلل يمثّل مكانًا ومستودعًا للأحداث ومخزنًا للذكرى، يحتفظ بطاقة الحب ويجددها على مرّ الزمن كلما طاف به العاشقان بين فينة وأخرى، وفي المدوّنة الأندلسية تتواشج الأمكنة وتعتنق في نسيج يوحده الحبّ، يقول ابن زيدون[3]:

إنِّـــي ذَكَرْتُـــكِ بـــالزَّهْراءِ مُشْـــتَاقاً .:. والأفْقُ طَلْقٌ ومَرأى الأرضِ قَدْ رَاقَا

وللنَّسِـــيمِ اعـــتلالٌ فِـــي أَصَـــائِلِهِ .:. كأنَّـــه رقَّ لـــي فاعـْــتلّ إشْـــفَاقَا

(بحر البسيط)

(١) الخصائص، ابن جني، حققه: محمد علي النجار، عالم الكتب، ٢٠٠٦م، ص١٨٨ – ص١٨٩.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣١.

٣ ـ ديوان ابن زيدون، ص ١٩٤ .

ويستدعي الرُّصافة وهي مكان حافل بالذكريات المجيدة[١]:

ولا زالَ نَــورٌ فــي الرُّصَــافةِ ضــاحكٌ .:. بأرْجَائِهَــا يَبْكــي عليــهِ غَمــامُ

مَعَاهِــدُ لَهْــوٍ لَــمْ تَــزَلْ فــي ظِلالِهــا .:. تُــدارُ عَلِيْنَــا للمُجُــونِ مُــدامُ

(بحر الطويل)

وفي البيئة الأندلسيّة ربما يمنح المكان أضعاف ما يمنحه في البيئة الصحراويّة، حيث يمثّل المكان الطبيعة الفاتنة والأرض الخلابة التي تمتلك الأنهار والأشجار والظلال وما تجذب إليها به الإنسان وتسحره بطابعها الخاص، ومن هنا فهي عنصر مهم في تشكيل علاقة الحب أو الذهاب به إلى مدى بعيد غير متوقع فيما لو لم تكن موجودة.

وقد ذكر ابن حزم المكان مرة أخرى "التضايق في المكان الواسع"[٢]، واستحضر أبياتًا شعريّة من قوله بما يغري بالقول إن المكان يمثّل استثارة للروح الشعريّة وحفزًا لها على القول والإنشاد والتغني كما استحضر أبياتًا شعريّة حينما ذكر إدمان النّظر.

وقد كان من الأمكنة باب العطارين و"يقدم ابن حزم معلومة مهمّة عن باب العطارين إذ كان هذا الموضع مجتمع النّساء في وقته، ولكنه لا يقدم أي تفصيل حول هذا الموضع، وربما كان هناك متنزه أو سوق تجتمع فيه النساء حتى أصبح بمرور الوقت مكانًا خاصًا بهن، ومكانًا يلتقي فيه العشاق"[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٤.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣٢.

(٣) ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، ص٣٧.

٤ – الأثر الشعوري والنّفسي، ويتمثّل في" بهت وروعة تبدو على المحبّ عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة" ومنها "اضطراب يبدو على المحبّ عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة"(١)

وتتصل هذه العلامات بخبرة ابن حزم النفسية وكونه مرّ بتجربة الحب وقاساه في صباه، وهي حصيلة خبرة دقيقة وتأمّل عميق " ولكنّ شخصيّته تبدو في قمّة توهجها في ثلاثة كتب شهيرة: طوق الحمامة، وفيه يلتقي الشّاعر وعالم النفس ليرسما لوحة جميلة للحياة العاطفيّة على أيامه"(٢).

٦ – التداعي مع الأسماء، وهي " أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يُحبّ، ويستلذ الكلام في أخباره"(٣).

وذكر اسم المحبوب يرتبط بعادة عربيّة شعريّة فيها التلذذ بذكر اسم المحبوب واعتباره وحده مؤنسًا وما عداه لا يمكن أن يجلب من الأنس والحبور ما يمكن أن يجلبه اسم هذا المحبوب، كما أنَّ فيه اعتبار أن هناك تسمية جديدة قوامها العشق بين الطَّرفين في ضوئها يمكن أن يرتبط العاشق باسم معشوقته أو ترتبط المعشوقة باسم عاشقها، وفيه نسب جديد هو نسب الحبّ بينهما يُضاد العلاقة الأصليّة الطبيعية، وتجربة الحب تحمل من المفاجآت والانكسارات والصعود والهبوط مالا تحمله أي علاقة رتيبة تسير في مألوف العادات ولا تفارق ذلك.

وقد أحبّ ابن حزم جارية اسمها نُعم، غير أن حبه لها لم يكن مطابقًا

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣١.

(٢) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص١٤٤، الكتابان الآخران اللذان عرض لهما الباحث: "الفصل بين الملل والأهواء والنحل" ، و " الأخلاق والسير في مداواة النفوس" .

(٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣٣.

لاسمها، موافقا لما يقتضيه هذا الاسم من نعيم ووصل وتمتع بالمحبوب، وإنما كان الحبّ على النقيض من ذلك، لم يأخذ من اسم معشوقته بنصيب، وترك هذا الحبّ أثرًا واضحًا على ابن حزم، يقول "كنت أشدّ الناس كلفا، وأعظمهم حُبًا بجارية لي، كان فيما خلا اسمها نُعم، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خلقًا وخلقًا وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار"(١).

(١) المرجع السابق، ص١٨٦.

المبحث الرابع
أفعال الحب

تتّصل أفعال الحُبّ بكل ما يكون بين المحبّ والمحبوب من أسباب ومحاولات تعبيرًا عن هذه النزعة، ولن تكون أفعال الحُبّ مكشوفة بادية، ذلك أن الحُب باعتباره علاقة بين طرفين فهي ذات صلةٍ بالمجتمع، ومن هنا تأخذ علاقة الحُبّ أشكالا مختلفة إما انسجامًا مع المجتمع المُحيط بها أو محاولة لتخطي ما يحاول المجتمع فرضه، وتتمثل أفعال الحُبّ كما يذكرها ابن حزم في: التعريض، والمراسلة، والسَّفير.

١ – التّعريض، و يكون "إما بإنشاد شعر، أو بإرسال مثل، أو تعمية بيت، أو طرح لغز، أو تسليط كلام"[١]، والتعريض مهم في اختبار شعور الطرفين وهل هناك تجاوب أم لا قبل مضي الطرفين قدما، وهو خير من التصريح الذي فيه فجاجة وعدم احترام الطرف الآخر أو إعطاؤه فرصة ليستبين موقفه، ويتصل به الإشارة بالعين.

٢ – المراسلة، وهي تكون إذا امتزجا، والامتزاج يدل على حال من ذوبان العاشق والمعشوق في ذات واحدة وبأن صار كل منهما إلى الآخر، وفيها المراسلة بالكتب، "وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس"[٢]، وهنا يستدعي ابن حزم هيئة الكتاب أو صورته ويعبّر عن ذلك بقوله "ألطف" بما يشير إلى خفة الشيء وقدرته على العبور ونقل ما بداخله من مشاعر، كما تأتي كلمة "أملح" التي تشير إلى الحسن الذي عليه مسحة القبول والسحر وله القدرة على النفاذ والعبور إلى مالا يقدر غيره على الوصول إليه.

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

ويتّصل ذلك بقوله "ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب، وبحلّها في الماء"(١). و حلّ الكتب في الماء يشير إلى الامتزاج، وهو ما بدأ به باب المراسلة، كما يشير إلى اللطافة والخفّة التي تشير إلى أن روح المُحب و المحبوب في عبور وامتزاج، وتداخل بين الطرفين، وهو ما يكون في كل حالة حُبّ.

وللكتاب سحر ونفاذ خطير وقدرة على نقل حرارة المشاعر ووهجها بحيث إن هناك كما يقول ابن حزم من "لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، أتيّ المزار"(٢)، وهناك "سقي الحبر بالدمع، ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالرّيق"(٣).

٣ - السفير، وهو عنصر مهم وطرف ثالث في العلاقة بين المُحبّ ومحبوبه، ويأتي دوره بعد استمكان الحب وحلول الثِّقة، و"يجب تخيره وارتياده، واستجادته"(٤)، وتخيّره لأنه يجب أن يكون موازيًا لعلاقة الحب في علوّها وجموحها أو كونها تسير في حال طبيعية.

ولأن موقف ابن حزم من الحب موقف إيجابي فإن السَّفير يتقاطع مع عنوان رسالته بحيث إن دوره لا يكون إلا "بعد حلول الثّقة، وتمام الاستئناس"(٥)، ومن هنا يقصّ "وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة، ويُعقد الكتاب في جناحها"(٦)، وبالتالي فعنوان رسالته يشتبك

(١) المرجع السابق، ص٦٠.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص٦١.

(٤) المرجع السابق، ص٦٢.

(٥) المرجع السابق، ص٦٢.

(٦) المرجع السابق، ص٦٣.

مع معاني السفير واستمكان الحُبّ.

ويمكن في الذاكرة الأندلسيّة استدعاء أحد الأسماء المهمة التي قامت بدور السفارة، وهو يحيى الغزال[1]، وسفارته وإن كانت على مستوى أعم وأوسع بين الملوك، إلا أن حضور اسمه يشتبك بشكل أو بآخر مع معاني السفير ويصب في عنوان رسالة ابن حزم ما يصب مما عرف به من شعر يميل إلى الغزل والحب.

(١) زمان الوصل: دراسات في التفاعل الثقافي والحضاري في الأندلس، د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ ، ٢٠٠٤م، ص٢٤ وما بعدها.

المبحث الخامس

أعراض الحب

ومما عرج إليه ابن حزم من أعراض الحبّ الوصل والهجر، ربما لأنه ذاق من كلا العاطفتين في تجربته في الحب، مع ما للوصل والهجر من قيمة جوهريّة بين العاشق ومعشوقه، إذ من خلالهما تستمر عاطفة الحب وتتوهج، أو تشحب وتنقطع.

و يُعدُّ الوصل ونقيضه الهجر من أعراض الحب المهمة، والوصل غاية من أسمى الغايات وحظ من أنبل الحظوظ، و في سياق الحُبّ به الحياة المتجددة، فحينما تجدب الحياة وتشحب يأتي الوصل ليمنحها معاني جديدة، وفي كل مرة تكون هذه المعاني وفقًا لظروفها وأحداثها وما مرّت به من سياقات مختلفة.

و قد أتيح لابن حزم في القرن الخامس الهجري وهو ينظر في العهود الأندلسيّة التي سلفت أن يلاحظ فيها معاني التجدد، من حيث إن كلّ عهد يحمل صبغة مُختلفة بما أتيح له من قادة وشعراء وعلماء، ولم تكن تستكمل دورة تاريخيّة وتأتي بعدها دورة أخرى إلا دلالة على ما تحمله الأرض الأندلسيّة من ثراء يخرج منه هذا التنوّع أنفس ما فيه.

وكان ابن حزم ينثر في رسالته قصصًا وأخبارًا لعشّاقٍ على امتداد الفترة الأندلسيّة، فضلاً عن تجربته الخاصة، ورسالته تحمل هوية أندلسيّة خالصة، ولن يكون لها ذلك ما لم تمثّل العهود الأندلسيّة المختلفة.

ولا يُعبّر الوصل عن خصوصية الحُب وحسب، ولكنه في التجربة الأندلسية يشتبك معها في جذرها، من حيث كون هذه التجربة في أحد معانيها نأيًا عن الجذور الأولى وبعدًا عن مرابع الصِّبا وانقطاعًا عن الأصول، وبالتالي فالأندلسي دائم النظر إلى الموطن القديم، يستمدّ منه الوهج، ويحاول لوصاله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومن هنا يُعبّر ابن حزم عن الوصل بتعبير يستلهم منه البيئة الأندلسيّة ويقول "وما أصناف النّبات بعد غِبّ القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النّوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخُضر، بأحسن من وصل حبيب"(١).

ولا يتوقّف دور الوصل عند هذا الحدّ، بل إنه يمتد إلى حالات مثل حالات التداوي في حال السقام بالحبّ والمرض به، فيغدو الوصل شفاء ويصبح القرب من المحبوب حلًّا وقد اتّفق رأي العقلاء من الأطباء وغيرهم في مواضعة الأدوية أن "شفاء هذا الداء في التقاء الزوجين والتصاق البدنين"(٢)، و قد ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه "لم يُر للمتحابين مثل النّكاح"(٣).

ويكون الوصال إلى حد أن تسمى المرأة في أحد المعاني سكنًا، لأن النفس تسكن إليها وتعلق بها "ولذلك تسمى المرأة سكنًا؛ لسكون النفوس إليها، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤)"(٥).

ويشير ابن عاشور إلى ذلك في تفسيره من أنها آية تنطوي على عدة آيات منها أن "جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٩٧.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد غريد شمس، دار عالم الفوائد، ص٣٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٤) سورة الروم، الآية ٢١.

(٥) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص٣١٦.

لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبّة"(١)

ومتى ما "تحقق الوصل انتفى الهجران والوصل للشاعر بمثابة الغيث للأرض فإذا واصلته المحبوبة أزهرت نفسه وإذا صدت فلا تثمر إلا الهجر والجفاء"(٢)، وقد أشار ابن حزم إلى ذلك فقال "وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ"(٣)، ويتّضح من هذه المعاني أن الوصل يكون بمثابة الماء والريّ لنفس العاشق، وإذا ما ربط ذلك ببيئة العرب الصحراوية التي تأسس عليها الشعر العربي أمكن فهم قيمة الوصل وجوهريّته في الحياة، من حيث إنه المعادل لما في البيئة من جدب، فيصل الإنسان بالإنسان تحقيقًا لهذه الرغبة.

ومع الرَّحيل والانتقال من مكان إلى مكان يجود الزمان بشيء من لحظات الوصل تروي العاشقين فيتزوّد كل منهما لأيام من النأي والبعد، ويعد مقطع الرّحيل جوهريّا في بداية القصيدة من حيث إنّه معادل للمعاني المتقابلة من وصل وهجر، وقرب وبعاد.

يقول ابن قتيبة " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَّ مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكى وخاطب الرَّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، تأليف: الطاهر بن عاشور، مجلد ٢١ ، الدار التونسية للنشر،١٩٨٤م، ص٧١.

(٢) أنماط الوصل والهجر في شعر الأحوص الأنصاري، د . نبراس محمد، مجلة آداب الفراهيدي، ٢٠١٧ م، ص١٢١.

(٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص١٠٠.

كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصَّبابة والشَّوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه" [١] .

وينقسم الوصل إلى قسمين[٢]:

أ - الوصل الحقيقيّ.

والوصل الحقيقي هو الذي يكون بالاتصال الفعليّ بين العاشق والمعشوق على أرض الواقع دون أن يحول بينهما حائل أو يقف حاجز معيقًا للوصال.

ب - الوصل المتخيّل.

والوصل المتخيّل هو الذي يكون عن طريق الطَّيف[٣]، وكأنَّ هذا الزائر عن طريق الطَّيف تعويض عن فقد اتصال حقيقي، فيأتي الطيف ليلغي المسافات ويقرب البعيد.

ويستعرض ابن حزم عبارة "إن دوام الوصل يودي بالحب" غير أنه يقف منها موقفًا مخالفًا ليبيّن جوهرية الوصل وقيمته المهمة فيقول "ومن الناس من يقول: إن دوام الوصل يودي بالحب، وهذا هجين من القول، إنما ذلك لأهل الملل، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا"[٤].

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج ١، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص٧٥.

(٢) أنماط الوصل والهجر في شعر الأحوص الأنصاري، ص١٢١.

(٣) أنماط الوصل والهجر في شعر الأحوص الأنصاري ، ص١٢٣.

(٤) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص١٠٠.

وواضح أن ابن حزم يقف مع الوصل ولا يرى دوامه منغصا أو مذهبًا للحب، بل إنه على عكس ذلك يجدد الحب ويقويه ويزيده اشتعالا، وذلك عائد إلى تجربته في الحبّ، ومن هنا كلما زاد امرؤ وصلا زاد اتّصالا.

ويقع على الضد من الوصل الهجر، ويعتبر الهجر آفة من آفات الحُبّ، وسيئة من سيئاته، ما إن يبلى بها العاشق أو المعشوق حتى تستحيل حياته مرارة بعد حلاوة وهمًّا بعد صفاء ونكدًا بعد سعد، وقد كان الهاجس الأوّل عند العربيّ وهو يكتب قصيدته فراق داره التي عاش فيها ونأيه عنها بعد أن قضى فيها زمنًا طويلًا، فأصبح يقاوم هذه الحالة من البُعد بالاستذكار وسحّ الدمع ومحاولة إيجاد بديل يعوّض عن هذا الفقد، والهجر في أحد صوره ضرب من الفقد، وبما إن ابن حزم خبر تجربة الحبّ وذاق منها ما ذاق فمما لا شك فيه أنه دار عليه الوصل والهجر وشرب من كلا الكأسين.

ويرتبط الهجر بالوصل ارتباطا وثيقا وينشدّ أحدهما إلى الآخر بصورة كبيرة، ومن هنا فليس إلا الزمن يمضي حتى تتغير الحال من هجر إلى وصل أو من هجر إلى وصل، وهما "بوصفهما نقيضين يتحقق حضورهما إما بتأثير الوشاة والرقباء، أو الأهل والأصحاب، فضلًا عن الزمان وتأثيره في أحوال المحبين وغير ذلك"(١).

ومن أبرز هؤلاء الذين غيّر الزمن حالهم من طور إلى طور العباس بن الأحنف، وهو وإن لم يكن في المدونة الأندلسيّة إلا أنه يمكن الاستئناس بحالته بمثل ما كان يشير فيه ابن حزم إلى المشرق بين الفينة والأخرى في رسالته حينما ذكر ابن عباس وابن داود؛ فقد كان العباس بن الأحنف يُسقى

(١) مسوّغات الهجر والصدود في شعر العذريين (العباس بن الأحنف أنموذجًا)، حسين الوطيفي، مجلة الكلية الإسلامية، ٢٠١٥م، ص١٩٥.

في العشق من كأس النعيم دائمًا، غير أنّه لم يعد يواتيه الحظ بمثل ما كان يُعطيه من ذي قبل، وقد بين الشّاعر أن "هذا الهجر والصدود لم يكن مفاجئًا، فقد بدت له ملامح تفصح عنه، لعل من أبرزها رد محبوبته للهدايا التي كان يبعثها إليها، فيقول:

ردّتْ علــيَّ هَدِيّــةً لــو أنّهــا .:. بعثــتْ إلــيَّ بِمِثْلِهـا لَـمْ أَرْدُدِ"[1].

(بحر الكامل)

ولا يقف الهجر عند هذا المظهر، ذلك أن محبوبته "لم تعد تراسله كما هو عهدها، فقد انصرفت عن ذلك بعد أن كانا يتبادلان الرسائل، بل إنها لم تعد تأبه لرسائله كثيرًا، فلا تجيب عنها وتهملها، فيقول:

حَتَّى مَتى أكْتبُ أشكو الْهوى .:. ولا تَجُــودِينَ بــردٍّ الجــواب
إنْ لــمْ تُجِيْبِــي بِمَــا أَشْـتَهِي .:. فَخَبّرينــي بِوُصــول الكتــاب"[2].

(بحر المجتث)

وقد يحدث الهجر بسبب المبالغة في إظهار مشاعر الحب والتودد للمحبوب بشتى الوسائل "والبوح بحبه والجهر به لم يرض محبوبته، بل أثار سخطها وغضبها، فراحت تصد عنه فيقول:

تَصُدين عنّي أن شكوتُ صَبَابَتي .:. ولو تَفْهَمُ الأخْرَى تَحَملت الأخرى الأخرى"[3].

(بحر الطويل)

واكتمال حال العشق والوصال المتبادل بين العاشق والمعشوق مدعاة إلى جلب أعين الحساد لهم الذين يتربصون بهم ويودون أن تنتهي هذه

---

(١) مسوّغات الهجر والصدود في شعر العذريين (العباس بن الأحنف أنموذجًا)، ص١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٩.

اللحظات ولا تستمرّ إذ "إن الكاشحين والحساد والرقباء والوشاة كل هؤلاء ليس لهم من هم سوى السعي الدائب إلى تنغيص حياة المحبين، والعمل على إفشاء البغضاء فيما بينهم، أملا في تفريقهم أو الحيلولة دون لقائهم، وغالبًا ما تنجح مساعيهم إذا ما وجدوا آذانًا تصغي لهم وتقتنع بأقوالهم، فيقول ابن الأحنف:

مُعَذِّبَتي فيمَ الصُّدودُ؟ وما الذي .:. أفنَّدُ حتى لا يكونَ صُدُودُ

أصدّقتِ حُسَّاداً وكذَّبتِ عَاشِقَاً .:. وليس سواء عاشقٌ وحسودُ"[١].

(بحر الطويل)

ويستعرض ابن حزم في رسالته أحد الأبيات[٢]:

يلومُ أَبُو العبَّاس جَهْلا بِطَبْعِهِ .:. كما عيّرَ الحوتُ النَّعامة بالصدى

(بحر الطويل)

وهذا أوّل الأبيات التي استعرضها في باب الهجر، ويمكن أن يستلهم من الكنية (أبو العباس) إيحاء يصلها بدولة بني العبَّاس المنافس لبني أميَّة والتي كانت سببًا مهمًا لقيام ملك بني أميَّة في الأندلس، وحينما يفتتح ابن حزم باب الهجر ببني العباس ففيه دلالة الانقطاع عنهم والصدود والذهاب في تجربة جديدة مغايرة تمامًا لتجربة بني العباس وملكهم في المشرق.

ويُقسّم ابن حزم الهجر إلى أقسام عديدة[٣]:

١ – هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر: وهنا يكون للرقيب سلطة في حالة العشق، ويكون منغِّصًا لدوام هذه الحالة بين المحب والمحبوب

---

(١) مسوّغات الهجر والصدود في شعر العذريين (العباس بن الأحنف أنموذجًا)، ص٢٠٣.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٦.

ومكدّرًا لها.

٢ – هجر يوجبه التذلل: ولا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه، فحينئذ يظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر مُحبِّه.

٣ – هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المُحبّ.

٤ – هجر الملل.

٥ – هجر القِلى.

ويبدو في الأقسام السابقة من الهجر أن الثلاثة الأولى منها تقع في نطاق الحبّ ودائرته، فالخوف من الرقيب مرده شدة حالة العشق وكون هذا الرقيب سيفسد الوصال، فليس هناك إلا التحول من عاطفة إلى عاطفة مماثلة؛ من عاطفة الحبّ إلى عاطفة الخوف، وهجر التذلل ما هو إلا لاختبار المحبوب وجذبه بعد أن كان بعيدًا، ويقع بالقرب منه هجر العتاب الذي يحاول أن ينقي عاطفة الحب مما يعلق بها من شوائب فيعود المُحب والمحبوب أقوى وأشد عشقا وإخلاصًا مما كانا عليه من قبل، وهجر الملل والقلى هو لاستنفاد الحب ما لديه بين كل من المحب والمحبوب، غير أنه يبدو أن هجر الملل وراءه لحظة عودة بعد الخلاص من أسر التعوّد ورتابته، فيما يبدو هجر القِلى إلى غير عودة.

و يُلاحظ فيما سبق منهجيّة ابن حزم وتدرجه في سرد حالات الهجر من أقصاها في الحُب إلى دخولها في درجات القِلى، وهي منهجية يمليها عليه كونه فقيها وموسوعيّ التكوين العلمي والأدبي، مما كان له أثر في صبغ تفكيره ورؤيته بصبغة معيّنة تميل إلى المنهجية والدقّة، ولعل أحد أبرز وجوه ذلك حرصه على أن تكون رسالته ذات هوية أندلسية خالصة، ورغبته في ألا يسرد من الأبيات الشعريّة إلا ما كان من قوله لأنه يعبر عن تجربته في الحب، وحرصه على التبويب والعناوين والاهتمام بالتقسيم(١).

---

(١) يُنظر: طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، ص١٢٧ وما بعدها.

المبحث السادس
آفات الحب

يتحدّث ابن حزم عن آفات الحب ويذكر منها الرقيب والواشي ، وهمّا من منغّصات الحب ومما يعيق دون انفراد المُحبّ بمحبوبه دون أن يشاركهما أحد غريب في هذه العلاقة.

والرقباء من وجهة نظرِ ابن حزم أقسام:

١ – رقيب ثقيل الظل، وهو " مثقل بالجلوس، غير مُتعمّد، في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه، وعزمًا على إظهار شيء من سرّهما، والبوح بوجدهما، والانفراد بالحديث "(١).

٢ – رقيب متوجس، وهو الذي يراقب العاشقين" قد أحسّ من أمرهما بطرف، وتوجس من مذهبهما شيئًا، فهو يُريد أن يستبين حقيقة ذلك، فيدمن الجلوس، ويُطيل القعود، ويتخفّى بالحركات، ويرمق الوجوه، ويحصل الأنفاس، وهذا أعدى من الحرب"(٢).

٣ – رقيب على المحبوب، وذلك " لا حيلة فيه إلا بترضّيه. وإذا أُرضي فذلك غاية اللذة، وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشُّعراء في أشعارها"(٣).

ويتوصل ابن حزم بعد أن ذكر الأقسام السابقة "وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتحن بالعشق قديما، ودهي به، وطالت مدته فيه، ثم عري عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكان راغبًا في صيانة من رُقّي عليه، فتبارك الله أي رِقبة تأتي منه، وأي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

(٣) المرجع السابق، ص٨٦.

جهته"[١].

يتّضح من خلال ما سبق مدى كون الرقيب منّغصا لعلاقة الحبّ ومدى كونه حاجزًا بينها وبين أن تبلغ أعلى ذروة لها دون عين تلحظ وتراقب، ذلك أن المُحب يستمتع بمحبوبه في خلوة لا يرى فيها سوى هذا المحبوب، ومن هنا تأتي أقسام الرُّقباء، وأوّل هؤلاء كما يصرح ابن حزم رقيب مثقل بالجلوس، وواضح من قوله "مثقل" أن هذا الرقيب ثقيل الظلّ لا يدرك كنه علاقات الحب ولا يفهم فيما يرومه كل عاشق من معشوقه في البعد عن كل ما من شأنه أن يُعرض علاقة الحب للابتذال والكشف.

وبعد ذلك رقيب قد أحسّ من أمرهما بطرف، وتوجس من مذهبهما شيئًا، وهنا تأتي عبارة ابن حزم في غاية الدّقة لبيان ترصد هذا الرقيب، فهو إن أحسَّ أي شيء أو توجّس أي شيء، سارع إلى القعود وأدمن الجلوس ليستبين ما وراء إحساسه وتوجّسه، ومن هنا فهو أعدى من الحَرَب.

والرقيب الثالث رقيب على المحبوب، ولا يفصّل ابن حزم حين ذكر هذا الرقيب، ويقول إنه لا سبيل إلا لترضيته، وكأنّ مجرد ذكر المحبوب، وهو المُرام في علاقة الحُب، يكفي لتلطيف العبارة.

وبعد ذكر الرّقيب يأتي الواشي، وهو آفة من آفات الحُبّ لحرصه على قطع العلاقة بين المحب ومحبوبه، ولو أدى إلى أن يكذب، فذلك ما يرومه ويسعى إليه.

والوشاة كما يرى ابن حزم على ضروب:

١ – واش يريد القطع بين العشاق ، و "أحدهما واشٍ يريد القطع بين المتحابين فقط. وإن هذا لأفترهما سوءة، على أنه السم الزعاف،

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧.

والصاب الممقر، والحتف القاصد، والبلاء الوارد"[١].

٢ – واشٍ يسعى للانفراد بالمحبوب ، " والثاني واشٍ يسعى للقطع بين المُحبين؛ لينفرد بالمحبوب ويستأثره، وهذا أشدّ شيء وأقطعه، وأجزم لاجتهاد الواشي واستنفاده جهده"[٢].

٣ – واشٍ يريد كشف السرّ، "ومن الوشاة جنس ثالث، وهو واشٍ يسعى بهما جميعا، ويكشف سرهما، وهذا لا يلتفت إليه إذا كان المُحبّ مُساعدا"[٣].

ويرى ابن حزم "وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب. وأما المُحبّ فهيهات، حال الجريض دون القريض، ومنع الحرب من الطرب، شغله بما هو مانع له من استماع الواشي. وقد علم الوشاة ذلك، وإنما يقصدون إلى الخليّ البال، الصائل بحوزة الملك، المتعتب عند أقلِّ سبب"[٤].

إنَّ هدف الواشي هو قطع العلاقة وما يصل بين العاشق ومعشوقه، وينصّ ابن حزم في أكثر من موضع على المحبوب، فالمحبوب هو الغاية، وهو ما يتجه إليه أي واشٍ ليفسده على محبه، ذلك أنه من يتمتع بالجاذبية والمحاسن التي جلبت إليه مُحبّه.

ويتضح من خلال تعريج ابن حزم على آفات الحب تجربته التي مرّ بها في حياته والتي ذاق من خلالها المرّ حين أحب جارية تدعى نعم قبل أن تذهب بها الليالي بعيدا عنه حين اخترمها الموت ، وبالتالي فابن حزم لا يكتب في الحب من خارجه، ولكنه يكتب فيه من داخله، ومن خلال ما ذاقه وقاساه من معاناة مرّ بها.

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٨٩.

(٢) المرجع السابق ، ص٩١.

(٣) المرجع السابق، ص٩١.

(٤) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٨٩.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلمية مع فلسفة ابن حزم للحب يمكن استخراج النتائج التالية:

١ ـ يُعدّ الحب رابطا مهما بين البشر، يؤلف بين عناصر المجتمع المختلفة ويوحد بينها في ظل إحساس جديد وشعور مختلف.

٢ ـ ساعد الاستقرار الفكري في الأندلس بعيدا عن الفرق والصراعات على بلورة عاطفة الحب داخل المجتمع الأندلسي وتشكلها وتوجهها بعد ذلك.

٣ ـ ربي ابن حزم الأندلسي في حجور النساء ومكنه ذلك من الاقتراب منهن ومعرفة أحوالهن والبصر بها والكتابة عنها بعد ذلك .

٤ ـ أحب ابن حزم الأندلسي جارية في صباه تدعى نعم ، ومكنه هذا الحب من أن يصدر في كتابه في فلسفة الحب عن تجربة ذاتية ومعاناة حقيقية في فهم أبعاد الحبّ وأحواله.

٥ ـ يذكر ابن حزم من علامات الحبّ إدمان النظر ، وإدمان النظر يشير إلى الإنسان كما يشير إلى الطبيعة التي ولع بها الأندلسيون وأحبوها هي الأخرى وكتبوا عنها .

٦ ـ توافر للمجتمع الأندلسي من أسباب الترف والنعيم والحياة ما استظلّ بظله العاشقون وتفرغوا من خلاله لعاطفة الحب.

٧ ـ يذكر ابن حزم بجوار مزايا الحبّ آفات الحب، ويبين ذلك عن تجربته الذاتية التي لم يظفر من خلالها بمحبوبته نعم، ولم ينعم معها بما يكفي.

٨ ـ ساعد على كتابة ابن حزم الأندلسي في فلسفة الحب كونه فقيها وموسوعي التكوين العلميّ والأدبي، وبالتالي فهو يسطر ويبين عن تجربته الواسعة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً :

القرآن الكريم.

ثانياً :

طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: د. صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال إبراهيم، إشراف: د. عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٢٢م.

الحبّ عند العرب: دراسة أدبيّة تاريخيّة، إعداد: المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

الحب والفناء، علي حرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ٢ ، ٢٠٠٩م، بيروت.

فن الحب: بحث في طبيعة الحب وأشكاله، إريك فروم، ترجمة: متيم الضايع، صفحة سبعة، الجبيل، ٢٠٢٣م.

في الحب والحُبّ العذري، صادق جلال العظم، ترجمة سعدي يوسف، دار المدى، ١٩٩٩م.

دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٧م.

الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ٢٠١٩م.

الحب في التراث العربيّ، د. محمد حسن عبد الله، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطّاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة، مصر، ط ٢، ١٩٧٧م.

الحُبّ العذري: نشأته وتطوّره، أحمد عبد الستار الجواري، دار الكتاب

العربي، مصر، ١٩٤٧م.
كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم السَّامرائي، مكتبة المنار، الأردن.
طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، دار الرشاد.
الحب العُذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٩م.
ديوان ابن زيدون، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م.
ديوان المعتمد بن عباد، بدون.
الحوار في غزل عمر بن أبي ربيعة، عبد الفتاح نافع، الأردن.
الخصائص، ابن جني، حققه: محمد علي النجار، عالم الكتب، ٢٠٠٦م.
زمان الوصل: دراسات في التفاعل الثقافي والحضاري في الأندلس، د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ ، ٢٠٠٤م.
روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد غريد شمس، دار عالم الفوائد.
تفسير التحرير والتنوير، تأليف: الطاهر بن عاشور، مجلد ٢١ ، الدار التونسية للنشر،١٩٨٤م.
الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج ١، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٥٨ م.

ثالثا: مجلات ودوريات:

دراسة في الحبّ عند ابن حزم، إحسان عباس، جامعة الدول العربيّة، ع ٣ ، ١٩٨١م.

الشِّعر النسوي الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري، سعد بوفلاقة، جامعة عنابة، ١٩٨٦ م.

المرأة والحب في الأندلس على مرآة طوق الحمامة، إبراهيم خليل محمد، مجلة المورد، ع ١ ، ٢٠١٦ م.

ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، قاسم الحسيني، مجلة آداب ذي قار، ع ٢٨ ، ٢٠١٨م.

أنماط الوصل والهجر في شعر الأحوص الأنصاري، د . نبراس محمد، مجلة آداب الفراهيدي، ٢٠١٧ م.

مسوّغات الهجر والصدود في شعر العذريين (العباس بن الأحنف أنموذجًا)، حسين الوطيفي، مجلة الكلية الإسلامية، ٢٠١٥م.

References :

qayimat almasadir walmarajie awlaan : alquran alkarim. thanyaan : tawq alhamamat fi al'ulfat wal'alafi, abn hazam al'andalsi, taqdima: du. salah fadl, sharh wataeliqa: du. amal 'iibrahim, 'iishraf: du. eabd aleaziz nbui, aldaar almisriat allubnaniati, 2022m. alhb eind alearabi: dirasat adbyt tarykhyt, 'iiedadi: almaktab alealamii lilbuhuthi, manshurat dar maktabat alhayati, bayrut. alhubu walfana'a, ealiin harba, aldaar alearabiat lileulum nashirun, t 2 , 2009m, bayrut. fanu alhubu: bahath fi tabieat alhubi wa'ashkaliha, 'iirik frum, tarjamata: mutyam aldaayei, safhat sabeat, aljibil, 2023m. fi alhubi walhub aleudhri, sadiq jalal aleazmi, tarjamat saedi yusuf, dar almadaa, 1999m. dirasat andlsyt fi al'adab waltaarikh walfalsafati, altaahir 'ahmad makiy, dar almaearifi, masr, 1987m. al'adab al'andalusiu min alfath 'iilaa suqut alkhilafati, 'ahmad hikli, dar almaearifi, masr, 2019m. alhubu fi alturath alerby, du. muhamad hasan eabd allah, ealim almaerifati, alkuayti, 1978m. dirasat ean abn hazm wakitabih tawq alhamaamati, alttahr 'ahmad makiy, maktabat wahbata, masr, t 2, 1977m. alhub aleudhri: nash'atuh wttwwrh, 'ahmad eabd alsataar aljawari, dar alkitaab alearabii, masri, 1947m. kitab alzahrat liabn dawud al'asbhani, tahqiqu: 'iibrahim alssamrayy, maktabat almanar, al'urdun. tawq alhamamat fi al'ulfat wal'ulaaf liabn hazam al'andalsi, tahlil wamuqaranata: siza qasama, ruyat lilnashr waltawzie, 2020m. maealim tarikh almaghrib wal'andals, da. husayn muanasu, dar alrashadi. alhubu aleudhry eind alearabi, da. shawqi dayfa, aldaar almisriat allubnaniati, t 1, 1999m. diwan abn zaydun, sharha: du. yusuf farahatin, dar alkitaab alerby, bayrut, 1994m. diwan almuetamid bin

eabadi, bidun. alhiwar fi ghazal eumar bin 'abi rabieat, eabd alfataah nafiei, al'urdun. alkhasayisu, abn jini, haqaqahu: muhamad ealiin alnajaari, ealim alkutub, 2006m. zaman alwasli: dirasat fi altafaeul althaqafii walhadarii fi al'andils, du. salah jarar, almuasasat alearabiat lildirasat walnashri, t 1 , 2004m. rawdat almuhibiyn wanuzhat almushtaqina, abn qiam aljawziati, tahqiqu: muhamad ghurid shamsi, dar ealam alfawayidi. tafsir altahrir waltanwiri, talifu: altaahir bin eashur, mujalad 21 , aldaar altuwnusiat lilnashri,1984m. alshier walshueara'a, abn qutaybata, j 1, tahqiq washarha: 'ahmad muhamad shakiri, dar alhadithi, alqahirati, 1958 mi. thalitha: majalaat waduryatun: dirasat fi alhb eind abn hazma, 'iihsan eabaas, jamieat alduwal alerbyt, e 3 , 1981m. alshshier alniswiu alandlsy fi alqarn alkhamis alhijrii, saed bufalaqati, jamieat eanaabata, 1986 mi. almar'at walhubu fi al'andalus ealaa murat tawq alhamaamati, 'iibrahim khalil muhamad, majalat almurdi, e 1 , 2016 mi. malamih min tarikh al'andalus aliajtimaeii walhadarii min khilal kitab tawq alhamamati, qasim alhusayni, majalat adab dhi qar, e 28 , 2018m. 'anmat alwasl walhajr fi shier al'ahws al'ansari, d . nibras muhamadu, majalat adab alfarahidi, 2017 mi. mswwghat alhajr walsudud fi shier aleudhriiyin (aleabaas bin al'ahnaf anmwdhjan), husayn alwatifi, majalat alkuliat al'iislamiati, 2015m.